محمد أحميان | *Mohamed Ahmiane

جوانب من القرصنة المتأخرة في ساحل الريف خلال القرن التاسع عشر

Late Piracy off the Rif Coast in the 19th Century

أصبح حوض المتوسط خلال القرن التاسع عشر يعجّ بحركة الملاحة، وقد عملت القوى الأوروبية، عقب مؤتمر فيينا (1814-1815)، على توحيد جهودها لكبح جماح القراصنة بالبحر المتوسط، وتمكنت من خلق إطار قانوني قادر على حماية سفنها؛ فجرّمت مقررات المؤتمر القرصنة، وأجازت ملاحقة سفن القراصنة. ورغم هذه التحولات الدولية، فإن قبائل الريف في المغرب استمرت في نشاطها القرصني، باعتباره نوعًا من الجهاد الشعبي (جهاد بحري خارج مساندة السلطة المركزية)، ضد أطماع القوى الأوروبية وسطوتها. وقد تمكنت قوارب الريفيين "البسيطة"، من تهديد خطوط الملاحة الأوروبية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتناقل العالم أخبارهم بوصفهم "قراصنة متوحشين". فكان "ملف القرصنة الريفية" يُثير ضجةً كبيرة في العالم الأوروبي؛ إذ شنت الصحافة الأوروبية حملة مسعورة ضد مقترفي هذه الأعمال، وعملت على تشويههم لدى الرأي العام الأوروبي بأسلوب محرّف ومجانب للصواب. فما خصوصيات هذه القرصنة؟ وكيف نظر المخزن إليها؟ وما مدى مساهمة "القوارب" الريفية في تهديد خطوط الملاحة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر؟

كلمات مفتاحية: القرصنة، الجهاد البحري، الريف، المخزن، البحر المتوسط.

In the nineteenth century, the Mediterranean Basin was teeming with sea traffic. The European powers, following the Congress of Vienna, worked to unify their efforts to curtail piracy in the Mediterranean Sea and were able to create a legal framework capable of protecting their ships, since the decisions of the Congress criminalized piracy and enabled the pursuit of pirate ships. Despite these international changes, tribes from the Rif continued their pirate activity as a form of popular struggle (a maritime struggle without backing from the central authority) against the sway and aspirations of the European powers. The "primitive" boats of the Rifis threatened European shipping routes in the western Mediterranean, which led to the world referring to them as "savage pirates". The issue of Rifi piracy caused considerable fuss in Europe. The European press launched a frenzied campaign against the pirates and offered a distorted view of the situation to their readers. This article seeks to answer a number of related questions What defined these pirates? How did the *Makhzen* view them? How did Rifi boats serve to threaten European shipping routes in the 19th century?

Keywords: Piracy, Maritime Struggle, Rif, Makhzen, Mediterranean Sea.

* باحث في التاريخ من المغرب.

History researcher from Morocco.

مقدمة

شكلت القرصنة أقدم النشاطات البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وساهمت في بث الفزع والتوتر بين ضفتيه. ونظرًا إلى موقع قبائل الريف[1] على الساحل المتوسطي للمغرب، فقد اعتبرت أبرز منشطيها. ويصعب وضع العمليات البحرية التي خاضتها قبائل ساحل الريف، خلال القرن التاسع عشر، ضد السفن الأوروبية، في خانة معينة؛ نظرًا إلى خصوصياتها، وهو ما يطرح مسألة مشروعيتها على المحك. وقد تضافرت عوامل مختلفة في تنشيط العمليات البحرية الريفية الموجهة ضد السفن الأوروبية، والتي مكنت القوارب الريفية من توجيه ضربات موجعة إلى حركة الملاحة الأوروبية، في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

أولًا: قبائل الريف تنشط القرصنة في سواحلها

1. خصوصية القرصنة الريفية

تعدّ "القرصنة الريفية"، التي نشطت خلال القرن التاسع عشر في الساحل المتوسطي للمغرب امتدادًا لذلك النشاط البحري الذي انبرى لمواجهة الهجمة الإيبيرية خلال القرن الخامس عشر، التي انتهت بالسيطرة على مجموعة من الثغور (سبتة، ومليلية، وبادس، والنكور). ومنذ ذلك الحين، تكفلت قبائل الريف بمحاصرة الوجود الإيبيري برًا، وتشديد الخناق عليه بحرًا، عن طريق مهاجمة سفنه، وقطع الإمدادات عن معاقله. وكان الريفيون بمهاجمتهم السفن الأوروبية، يمارسون جهادًا بحريًا، وليس "قرصنة" بالمعنى الأوروبي؛ فقد مثلت عملياتهم أسلوبًا للجهاد والدفاع عن مجالهم الحيوي وترابهم، ضد أعداء الدين والوطن، وفي الوقت نفسه مثّلت أحد أهم الموارد المالية لهم ولخزينة الدولة[2].

ولأهمية النشاط "الجهادي" لأهل الريف، فقد حظي بدعم كبير من المخزن المغربي، لا سيما في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله[3]. لكن المتغيرات المحلية والدولية للقرن التاسع عشر، وما تمخض عنه مؤتمر فيينا (1814-1815) من قرارات، أفضت إلى توحيد الجهود الأوروبية لكبح جماح القرصنة في البحر الأبيض المتوسط، من خلال خلق إطار قانوني قادر على حماية سفنها المترددة على الحوض الغربي للمتوسط؛ وأصبحت مقررات المؤتمر مرجعية قانونية بالنسبة إلى الدول الأوروبية، التي صنّفت القرصنة جريمةً دولية؛ فأجازت ملاحقة سفن القراصنة[4]. وقد دفع مبدأ حرية الملاحة إلى إيجاد الآليات التي تحدد جنسيات السفن، للتمييز بين تلك التي يسمح لها القانون بالإبحار والأخرى المبحرة بطريقة غير مشروعة؛ من أجل حماية الأولى، ومنع وجود الثانية[5]، إضافة إلى تحول التوجه العام للدولة المغربية، من الانفتاح في عهد سيدي محمد بن عبد الله إلى الاحتراز في فترة حكم المولى سليمان؛ الذي جعل

---

1 يطلق الريف للدلالة على المجال الجغرافي والبشري الممتد على طول الواجهة المتوسطية للمغرب، الواقعة بين نهر ملوية ومضيق جبل طارق. وهي المنطقة التي سوف تخضع للاستعمار الإسباني بعد سنة 1912. لمزيد من التفصيل، انظر: محمد أونيا، "مفهوم الريف المغربي"، **مجلة حوليات الريف**، العدد 1 (1998)، ص 14-44.

2 محمد أقضاض، **الاحتراق والتوهج: الريف بين 1860 و1920** (وجدة: دار النشر الجسور، 2001)، ص 16-17.

3 أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف** (القسم الأول من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)، تحقيق رشيد الزاوية (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1992)، ص 482.
ولمزيد من التفصيل، انظر كذلك:
Ramón Lourido diaz Lourido Díaz, *Marruecos en la segunda mitad del siglo XVIIIe,* Edición de la Instituto Hispano-Árabe de Cultura (Madrid: Imp. IMNASA-Menorca, 1978), p. 112.

4 Amédée Sainte-Claire Deville, *Du crime de piraterie étude sur de la loi du 10 Avril 1825* (Versailles: Imprimerie de E. Aubert, 1876), pp. 11-12

5 Carlos Testa, *Le droit public international maritime principes généraux, règles pratiques*, Ad. Boutiron (trad.), (Paris: Ed. G. Pedone-Lauriel, 1886), p. 99.

المخزن يُحجم عن الجهاد في البحر سنة 1817، ويحل أسطوله ويوزعه على الإيالات المجاورة؛ مثل الجزائر وطرابلس[6]، نتيجة تعاظم الأساطيل الأوروبية وتفوقها التقني والعسكري.

لقد فرض التفوق الذي أبانت عنه البلدان الأوروبية في المجال البحري تعديل العلاقة التقليدية القائمة بين ضفتَي المتوسط. ففي ظل غياب التكافؤ بين الطرفين، أصبح الجهاد البحري مصدر فتنة وتوتر للمغرب في علاقته بـالقوى الأجنبية. ودفع ذلك السلطان المولى سليمان إلى إزالة كل ما من شأنه أن يكرس النزاع معها؛ فألغى استرقاق البحارة الأوروبيين، وأقدم على تفكيك وحدات أسطوله؛ لإدراكه أن الجهاد البحري أصبح متعذرًا في ظل التفوق المسيحي[7]. ويكون السلطان بموقفه هذا قد فهم واقع البحرية المغربية فهمًا عميقًا، وتيقّن أن العمل على بناء أسطول قوي لم يعد مُمكنًا؛ إذ غدت القرصنة، عقب مؤتمر فيينا، نقطةَ ضعف في علاقات المغرب بالخارج، بعدما كانت أداة للضغط، وذلك بسبب تعارضها مع "الشرعية الدولية".

وقد عرفت "القرصنة الريفية" انتعاشًا مهمًا في عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام (1822-1858)، نظرًا إلى الأهمية التي أولاها هذا السلطان للجهاد البحري[8]؛ بإحيائه للجهاد البحري الذي عطّله سلفه المولى سليمان. ولعل ما يظهر ذلك هو العمل على إعادة بناء الأسطول، إذ استأنفت عملية مطاردة السفن الأوروبية[9]، واستفاد الريفيون من هذا الدعم الرسمي لنشاطاتهم، نظرًا إلى ما كانت تقوم به "الفلايك الريفية"[10] من دور في حماية الساحل المتوسطي من الأطماع الأجنبية. ففي رسالة وجّهها المولى عبد الرحمن إلى محمد أشعاش[11] قائد تطوان، جاء فيها: "وبعد، فإن المجاهدين من أصحاب رباط الكرمة من قلعية قد طلبوا الاستعانة بمدفع، وألحّوا في ذلك، وذكروا أن عندهم من يعرف الضرب به. فبوصول كتابنا هذا إليك، انظر لهم مدفعًا من ثغر تطوان على 'الفرمة' التي يطلبون، ووجّهه لهم مع إقامته"[12].

وقد جاء تجاوب المخزن مع مطلب أهالي الريف في إطار الأخطار المحدقة بالمغرب، خاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر، وتنامي الأطماع الإسبانية في الريف، وخشية السلطان من قيامهم بعمل مماثل لما قامت به فرنسا في الجزائر، ما جعل السلطان عبد الرحمن بن هشام يستجيب لطلب القلعيين لتحصين الجبهة الشمالية، بتنشيط "الجهاد الشعبي" للتقليل من سطوة الإسبان/ الأجانب. وأمام تمكن "أجناس" الدول الأوروبية من السيطرة التامة على الطرق البحرية العالمية، وتضايقها من "أعمال القرصنة" التي هدّدت مصالحها[13]، تزايد ضغطها على المخزن لمحاربتها.

وقد أسهم الاهتمام البحري للسلطان عبد الرحمن بن هشام في جعل المغرب يدخل في مواجهات مع القوى الأوروبية، ومثّل هذا النشاط سببًا لتدخل عدد من القوات الأجنبية في المغرب. ومن ذلك مثلًا إقدام إنجلترا سنة 1828 على حصار طنجة، وقصف مدن أخرى؛ كتطوان والعرائش

---

6 أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق أحمد الناصري، ج 7، ط 2 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001)، ص 171.

7 محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين (1792-1822)**، ترجمة محمد حبيدة (بيروت/ الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، 2006)، ص 195.

8 الناصري، ج 8، ص 23.

9 Jean-Louis Miege, *Le Maroc et L'Europe (1830-1894)*, tom. 2 (Paris: PUF, 1961), p. 33.

10 نعني بالفلايك القوارب، وقد وردت هذه التسمية في الرسائل المخزنية.

11 محمد بن عبد الرحمن أشعاش، وُلّي عاملًا على تطوان نحو سنة 1241هـ/ 1827م، تطلع إلى حكم نافذ يعم كل الشرائح الموجودة داخل منطقة نفوذه، فضرب على أيدي المجرمين وسهر على أمن الطرق، وسعى لبث هيبة المخزن في النفوس فكان الخادم الأمين للسلطة المركزية، والمدافع المخلص عن وجهة نظرها، مستعملًا في ذلك وسائل الزجر والإكراه. لمزيد من التفصيل انظر: عبد العزيز خلوق التمسماني، **معلمة المغرب**، ج 2، ط 2 (الرباط/ الدار البيضاء: دار الأمان/ الجمعية المغربية للنشر والتأليف، 2014)، ص 462.

12 محمد داود، **تاريخ تطوان**، مج 8 (الرباط: المطبعة الملكية، 1978)، ص 375.

13 عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوروبا: ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)**، ط 2 (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص 248.

وأصيلا، وهو ما أدى إلى تأزم العلاقات المغربية - الإسبانية[14]. إن المشكلات التي أثارتها الأعمال البحرية الريفية ضد الأجناس الأجنبية، واستغلالها للضغط على المخزن، جعل السلطان عبد الرحمن بن هشام كما فعل سلفه المولى سليمان يُعرِض عن أمر البحر؛ لمصلحة البلاد[15].

تنم هذه المحاولات عن "عدم دراية" المخزن بالواقع الدولي؛ لكون نشاط القرصنة لم يعد مسموحًا به دوليًا، ولم يعد للمغرب القدرة على ضمان حماية سواحله من ردود فعل الأساطيل الأوروبية، وهذا ما تأكّد بعد القصف المدفعي للموانئ المغربية، وما ظهر جليًا بعد حرب تطوان؛ وهو ما أفسح المجال أكثر لنوع آخر من الممارسات والنشاطات البحرية. لقد كانت النشاطات الجهادية فردية وغير منظمة، ومحدودة جدًا في السابق، غير أن تواري العمل البحري المخزني فسح لها المجال وأصبحت المراكب المحلية تسيطر على المشهد البحري في شمال المغرب. ومثّل نشاطها مظهرًا من مظاهر المقاومة الشعبية التلقائية. هل استمرت القرصنة الريفية بلا انقطاع، على الأقل إلى غاية فرض صك الحماية؟ هل سيتَمكن منشطو العمليات "القرصنة الريفية" من فهم صيرورة التحولات العالمية؟ أم هل إنهم تشبثوا فقط بحقهم في المقاومة/ الجهاد؟ وهل توقف فعلًا نشاط الأسطول المخزني عن الجهاد في البحر، مقابل استمرار نشاط القبائل الريفية؛ وجعل هذه العمليات تنتقل من جهاد إلى "قرصنة" رغم استمرار المنطلقات ذاتها؟ وهل كانت العمليات البحرية التي تمّت قبل إنهاء نشاط الأسطول المخزني ضمن نطاق الشرعية، وما تلا ذلك يعتبر غير شرعي؟

2. "القرصنة الريفية": جهاد شعبي أم لصوصية بحرية؟

لقد استمر الجهاد البحري في سواحل الريف، حتى بعد الإعراض التام للمخزن عن الجهاد البحري[16]، وبدعم ضمني أو علني من السلطة المركزية في بداية الأمر. ورغم ما مارسته القوى الأوروبية المتهافتة على البلاد من ضغوطات على المخزن ليتخلّى عن مساندة رعاياه المجاهدين، واعتبارهم قراصنة خارجين عن طاعته[17]، فإن السلطة المركزية وجدت في هذا النشاط، خلال بعض الفترات التاريخية، وسيلةً للضغط على الدول الأوروبية. كما كان المقابل "القرصنة الريفية" ورقة ضغط قوية للأوروبيين في أحيان كثيرة؛ لذلك حاول المخزن اقتلاع جذورها، لكن بلا جدوى أمام تمسّك قبائل الريف بحقها في القيام بواجبها الديني والوطني، المتمثل في الجهاد والدفاع عن ترابهم ضد التغلغل الإمبريالي، وكانت "القرصنة" وسيلة مُثلى لتحقيق ذلك.

إن استماتة الريفيين، واستمرار نشاطهم في تسديد ضربات قوية لحركة الملاحة الأوروبية في الحوض الغربي للمتوسط، جعلا الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر يتناقلون أخبارهم "كقراصنة متوحشين، يجرؤون على مهاجمة السفن الأوروبية، ويُوفّقون في نفس الوقت إلى الإفلات من عقوبتها"[18].

كان التصور الأوروبي "للقرصنة الريفية" ينطوي على كثير من الافتراءات؛ فقد جعلهم قراصنة متوحشين لا يترددون في الانقضاض على السفن الأوروبية بكل وحشية[19]. وقد قدّمتهم الصحافة الإسبانية بوصفهم عصابات إجرامية ومغامرين انفراديين لا يخضعون لقانون ولا يحترمون ميثاقًا، غاياتهم الأساسية هي الاغتناء على حساب الأساطيل التجارية التي تقترب من ساحلهم[20]. لقد

---

14 Miege, tom. 2, p. 34.

15 الناصري، ج 8، ص 32.

16 Jacques Caillé, *La Petite histoire du Maroc* (Troisième série: de 1850 à 1912) (Rabat: Éd. Société de Librairie et d'Edition Atlantique, 1954), p. 30.

17 محمد أونيا، "القرصنة الريفية (1856م-1898م): الأسطورة والواقع"، في: مجموعة مؤلفين، **الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي** (سلا: منشورات جمعية أبي رقراق، 1999)، ص 332.

18 جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، ترجمة محمد أمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسماني (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1986)، ص 189.

19 "Los moros del Rif," *El Noticiero Balear (Diario de avisos y noticias*), (Palma, Año II, 10 de Mayo de 189), no. 405, p. 1.

20 "En el Rif : Piratas degollados," *La Crónica Meridional* (diario liberal independiente y de intereses generales), Almería, Año XXXIX, 8 de Junio de 1898, no. 11622, p. 1; "Descripción e historia del imperio de Marruecos," El diario de Menorca, Año III, 2 de Mayo de 1860, no. 446, p. 3.

كانت العمليات البحرية للريفيين عمليات فردية، تمتاز بمبادرة تلقائية في مهاجمة سفن النصارى التي تجوب سواحل المتوسط، من دون أي اعتبار لطبيعة تلك السفن، ولا لجنسيات الرايات التي تمثلها[21]، ومن دون الأخذ في الحسبان إن كانت هذه الدول مرتبطة باتفاقيات/ معاهدات تجارة وصداقة تضمن لها حرية الملاحة في السواحل المغربية، من خلال منحها "الباسبورت" (تصريح الإبحار). إن التركيز على هذه الصفات لا يفسر الحكم المجاني الذي ينفي صفة "الجهاد البحري" عن العمليات البحرية الريفية؛ لأن الريفيين الذين كانوا يقومون "بجهاد شعبي" لم يكونوا ليستوعبوا هذه المتغيرات، فبالنسبة إليهم كل الأجانب/ الأوروبيين هم نصارى، لذلك تجب مهاجمتهم[22].

إن الكتابات الأجنبية التي روّجت لأطروحة "القرصنة الريفية" استهدفت بالأساس تشويه صورة المغرب والتحامل عليه لخرق سيادته[23]، مستغلة "القرصنة" لتبرير التحركات الأوروبية ضد الساحل المتوسطي للمغرب؛ على اعتبار أن "قراصنة الريف" خارجين عن القانون. وعمومًا "فالقرصنة الريفية" ظلت في حالة مد وجزر بين خطابين أساسيين:

أ. خطاب أجنبي

تستخدم الكتابات الكولونيالية كلمة اللصوصية Pirateria عندما تتحدث عن "القرصنة الريفية"، وحتى عندما تُوظف مصطلح Course (أي القرصنة) تجعله مرادفًا "للصوصية"، وذلك اعتمادًا على المرجعية القانونية الأوروبية التي أفرزها مؤتمر فيينا الذي حرّم نشاط القرصنة. وتماشيًا مع ذلك اعتُبر النشاط البحري الذي قامت به قبائل ساحل الريف، "لصوصية بحرية سافرة"، على حد وصف النصوص المعاصرة[24]، وذلك لكون الريفيين على استعداد دائم لسرقة السفن الأوروبية[25]. وترى نصوص أخرى أن من يمارس هذه اللصوصية أناس متوحشون[26] وعصابات غير منضبطة[27]، لا تتردد في ذبح أسراها بدم بارد، كما أنها تتقن الخداع والمراوغة، فأفرادها يكشرون عن أنيابهم عندما يبصرون الغنيمة[28]. وتتحول المعارك البحرية بين الريفيين والنصارى إلى مجزرة حقيقية في حق الركاب وأفراد الطاقم؛ إذ يلقون جثثهم في عرض البحر، بعد الحرص على حلق رؤوسهم، وتشويه وجوههم[29]، فهم بذلك ليسوا إلا جبناء ومتوحشين[30]؛ فينتقل الريفي في نظر تلك الكتابات من صياد مسالم إلى لص بحري، يعيش على النهب مثل أجداده؛ فهم حفدة القراصنة القدماء الذين يهاجمون كل المراكب المبحرة في هذا الجزء من المتوسط[31].

---

21 أمحمد بنعبود، "القرصنة من خلال وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان والمفوضية الأمريكية بطنجة"، في: مجموعة مؤلفين، **تطوان خلال القرن الثامن عشر (1727-1822)**، (تطوان: مطبعة الهداية، 1994)، ص 30.

22 Youssef Akmir, "Reflexiones sobre la sociedad marroquí y la política de atracción español (1898-1912)," in: Manuel Corchado Rincón, *Relaciones entre España y Marruecos en el siglo XXe* (Madrid: Edición de la Asociación Española de Africanistas, 2000), p. 26.

23 عبد العزيز خلوق التمسماني، **دراسات في تاريخ شمال المغرب المعاصر** (طنجة: منشورات سليكي إخوان، 1996)، ص 16-17.

24 Deville, p. 4.

25 Jerónimo Becker, *Historia de Marruecos Apuntes para la Historia de la penetración europea, y principalmente de la española, en el Norte de África*, tom. 1 (Madrid: Eds. Establecimiento Tipográfico de Jaime Ratez, 1915), p. 224.

26 Ministro plenipotenciariode España en Tánger a Ministerio de Estado, despacho no. 188, Legación de España en Tánger, 19 de Octubre de 1897, *A. G. A.* África, Sección Histórica (Marruecos), Caja 221.

27 Achille Étienne Fillias, *L'Espagne et le Maroc en 1860* (Paris : Éd. Poulet-Malassis et de Broise, 1860), p. 165.

28 أوجيست موليراس، **المغرب المجهول: اكتشاف الريف**، ترجمة عز الدين الخطابي، ج 1 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2007)، ص 139.

29 Jean Drummond Hay, *Le Maroc et ses tribus nomades (Excursion dans l'intérieur, chasses, détails de mœurs, superstitions, coutumes, etc.)*, Louise SW.-Belloc (trad.), (Paris: Ed. Arthus Bertrand, 1844), pp. 284-285.

30 Rafael Pezzi, *Los presidios menores de África y la influencia Española en el Rif* (Madrid: Impresor de la Real Academia de la Historia, 1893), p. 93.

31 آمنة اللوه، "حول إستراتيجية النبأ عند المغاربة"، **مجلة البحث العلمي**، السنة 28، العدد 42 (1994/ 1995)، ص 148-149.

ومن ثم، فإن أصل البلاء كله يعود إلى الريفيين، فهم وحدهم من يتحمل مسؤولية التوتر الذي شهدته العلاقات المغربية - الأوروبية خلال القرن التاسع عشر. إن إلصاق هذه التهم ("اللصوصية"، و"النهب") بالريفيين، أعطى تبريرًا للتدخل الاستعماري في قبائل ساحل الريف لوقف "وحشيتها"، خصوصًا أن احتلال فرنسا للجزائر قد حَدّ من القرصنة في سواحلها[32].

ب . خطاب وطني/ إسلامي

يمكن التمييز داخل هذا الاتجاه بين تيارين مختلفين اعتمد كل منهما خطابًا معينًا بناءً على معطيات أملتها عليه طبيعة مصالحه في المنطقة.

- التيار الأول: حاول التموقع في موقف الدفاع والرد على الاتجاه الأول، معتبرًا قضية "القرصنة الريفية" أطروحة مُزيفة، نسجت خيوطها الهيستوريوغرافيا الكولونيالية، قصد تشويه حقيقة الحركة البحرية الريفية، وضرب مشروعيتها. وقد حاول هذا الاتجاه أن يبرهن على صحة طرحه استنادًا إلى شواهد تاريخية، مفادها أن الحركة البحرية الريفية هي في عمقها امتداد للجهاد البحري الإسلامي ضد الغارات المسيحية[33]، وأن أهل الريف الذين تنعتهم الكتابات الأوروبية بالقراصنة هم في الواقع مجاهدون بحكم دفاعهم عن أرضهم ضد محتل أجنبي[34].
- التيار الثاني: يستند إلى الوثائق المخزنية، التي تكاد تعيد الأوصاف والنعوت نفسها المفتراة على الريف والريفيين، شأنها في ذلك شأن الكتابات الاستعمارية[35]. فأهل الريف، في نظرها، "متعصبون خارجون عن الأحكام لا تحصل منهم استقامة مع العمال ولا تجري عليهم أحكامهم"[36]. كما أن هذه الأعمال التي يقوم بها "صعاليك أهل الريف إنما يجرون بها الخسارة للمسلمين"[37]، ويعملون على "إدخال المهانة على الإسلام"[38]. لذا وجب "قمع هؤلاء الظلمة حيث لم يرجعوا على ما هم عليه"[39]؛ ويعتبر هجومهم على مراكب الإنكليز والفرنسيس والإسبان "ظلمًا محضًا مذمومًا شرعًا"[40]. كما رأى هذا التيار أن أهالي الريف "ارتكبوا بسببها [القرصنة] نقض العهود والفساد في الأرض ومخالفة طاعة الله ورسوله"[41]. ومن ثمّ، فإن المخزن لا يتحمل مسؤولية ما "يرتكبه متمردو الريف الذين لا يخضعون للسلطان، وإذا أحب الإسبانيون أن يعاقبوا المعتدين عليهم، فإن عملهم ذلك لا يمسّ في شيء العلاقات الودية الحسنة القائمة بين الدولتين"[42]، ولا يشوش عليها

---

32 Fillias, p. 142.

33 أونيا، "القرصنة الريفية"، ص 331.

34 التمسماني، **دراسات**، ص 16.

35 أونيا، "القرصنة الريفية"، ص 331.

36 عبد الرحمان بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، ص 104.

37 رسالة موجهة من السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام إلى محمد أحضري، 10 ربيع الثاني 1274هـ/ 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1857م. أوردها:
Abdelmajid Benjelloun, *Fragments d'histoire du Rif oriental et notamment des Beni Said dans la deuxième moitié du XIXe siècle (d'après les documents de Hassan Ouchen)*, (Rabat: Impr. Al Maarif al jadida, 1995), p. 410.

38 رسالة الوزير محمد الصفار إلى محمد أحضري، بتاريخ 28 محرم الحرام 1275هـ الموافق 7 أيلول/ سبتمبر 1858م، في:
Ibid., p. 411.

39 انظر: رسالة موجهة من محمد بن عبد المالك إلى محمد أحضري، بتاريخ 24 رمضان 1272هـ الموافق 29 أيار/ مايو، سنة 1856م، في:
Ibid., p. 407.

40 المرجع نفسه.

41 رسالة موجهة من الصدر الأعظم أحمد بن موسى إلى شرفاء أهل وزان بقبيلة بني يطفت، بتاريخ 25 جمادى الأولى 1315هـ الموافق 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1897، و**وثائق A.G.A**، المجموعة الخاصة بالمغرب، صندوق 69.

42 بيان من نائب المخزن في طنجة محمد الخطيب إلى ج. دراموند هاي سنة 1859 م، أورده: داود، مج 4، ص 99.

سوى "فساد الريف"[43]، الذي يترصد سكانه السفن الأوروبية، التي من سوء حظها، "تسقط في أيدي المتوحشين"[44] الريفيين. وبذلك تبرّأ المخزن من أعمال "القرصنة" التي يرتكبها رعاياه.

خلاصة القول، إن العمليات البحرية التي خاضها الريفيون في ساحل المتوسط، من الصعب وضعها في خانة معينة، فهي في مد وجزر دائم، وهذا ما يجعلنا نُوظّف مصطلح "القرصنة الريفية" بتحفظ. فهي ليست من قبيل أعمال القرصنة الخاضعة لتنظيم محكم، وفي الوقت ذاته لم تكن تهاجم سفن النصارى قصد الاستيلاء عليها ونهب حمولتها والفتك ببحارتها، بل إنها كانت أسلوبًا للمقاومة التلقائية للأطماع الاستعمارية في مجالهم الحيوي، استنادًا إلى الحق المشروع في الدفاع عن النفس. وفي إطار المعاملة بالمثل نصرةً للأهالي الذين اعتدى عليهم الإسبان، فكان من الضروري أن ينتقموا لأنفسهم باعتراض السفن الأوروبية التي تقترب من سواحلهم، لا سيما في ظل ضعف المخزن، وتكبيل تحركاته بالضغوط الإمبريالية، ومن ثمّ لم يعد من المجدي بالنسبة إلى أهل الريف اللجوء إلى المخزن في ظروف كهذه. ولذلك، فالقصد من "القرصنة الريفية" يختلف تبعًا لاختلاف وجهات النظر؛ إذ اعتبرها الريفيون واجبًا مقدسًا ضد العدو الكافر الذي يتكالب على البلاد. بينما كانت تعني للأوروبيين والمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لصوصية فحسب. والحق أنه من الصعب تصنيفها في خانة "اللصوصية"، رغم تداخل أسبابها الاقتصادية، والدينية، والسياسية ... إلخ.

ثانيًا: القوارب الريفية البسيطة تُهدد الملاحة الأوروبية في ساحل المتوسط

تمكنت القوارب "البسيطة" للريفيين، المدعمة بالظروف الطبيعية، والمستفيدة من تقنيات تنفيذ عمليات "القرصنة" من تهديد خطوط الملاحة الأوروبية في ساحل المتوسط للمغرب.

وقد أصبحت القبائل الريفية التي لم تكن تشكل سوى ساكنة متواضعة، ذات إمكانيات تقنية محدودة، موضوعًا للعديد من المراسلات والكتابات الأوروبية التي "تناقلت أخبارهم بوصفهم قراصنة متوحشين"[45]. وهو ما يجعلنا نتساءل عن حجم هذه الأعمال التي قام بها الريفيون وأهميتها، وكيف تمكّنوا من تهديد السفن الأوروبية الضخمة والمزودة بالأسلحة النارية، وهم لا يمتلكون سوى قوارب صغيرة "أغاربو" Carabo. وعن الإمكانيات التقنية التي توافرت لدى الريفيين ومكّنتهم من تهديد الملاحة المتوسطية؟

1. مميزات الوحدات البحرية الريفية

إن التكالب الإيبيري على ساحل الريف خلال القرن الخامس عشر وسيطرته على أهم موانئه (سبتة، والنكور، وغساسة، ومليلية)، وتعويض موانئ الرّسو المجهزة القادرة على استقبال السفن ذات الحمولات الكبيرة، بالخلجان الطبيعية، لم يساعد على قيام نشاط بحري مهم، باستثناء تطوان التي أدت دورًا خاصًا في القرصنة، أهّلها لذلك موقعها بصفته ميناءَ مصبّ. ورغم أهمية هذا الميناء، فإنه لم يكن مجهزًا تجهيزًا تامًا واقتصر الأمر فيه على وسائل الترميم والتموين[46].

لقد ظلّ نشاط "بناء السفن" في ساحل الريف يتسم بضعفه التقني، وهو ما أثّر في صنع المراكب والزوارق القادرة على مواجهة ظروف العمل، نظرًا إلى غياب قواعد بحرية قادرة على استيعاب هذه التحولات، والاستفادة من المتغيرات التقنية الأوروبية[47]،

43 رسالة من أحمد بنموسى إلى النائب محمد العربي الطريس، مؤرخة في 17 جمادى الآخرة 1315هـ الموافق 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1897م، **وثائق الخزانة العامة بتطوان**، مج 24/88.

44 رسالة موجهة من الخطابي الأب إلى الجنرال خوردانة، بتاريخ 12 رجب 1331هـ الموافق 22 حزيران/ يونيو 1913. في: أونيا، "القرصنة الريفية"، ص 349.

45 جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسماني (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الحديدة، 1992)، ص 96.

46 جون لوي مييج، "أنشطة تطوان البحرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، ترجمة مصطفى غطيس، **مجلة كلية الآداب بتطوان**، العدد 7 (1994)، ص 77.

47 حسن أميلي، **المغاربة والمجال البحري في القرنين 17-18** (الرباط/ المحمدية: دار أبي رقراق للطباعة والنشر/ مختبر الأركيولوجيا والتراث الثقافي الساحلي، 2011)، ص 261.

رغم ما وفّرته غابات جبال الريف من المادة الأولية الضرورية لتحقيق ذلك؛ فقد كانت الصواري تصنع بالأساس من خشب الأرز، إضافة إلى خشب الفلّين الذي ينتشر في بني توزين[48]. وقد عرفت قبائل قلعية بصناعة القوارب، مستغلة في ذلك أخشاب الغابات المجاورة لها[49].

ولا تورد المصادر التاريخية سوى أسماء قليلة، عند تطرقها إلى "الوحدات البحرية" المستعملة في الريف، وهذا في حد ذاته يعتبر مؤشرًا قويًا على ضعفها. ومن بين الوحدات التي وُظفت من قبل "قراصنة الريف" نجد "مشيشو"[50]، وكذا "الشباك"، وهو نوع من القوارب الكبيرة يبلغ طوله نحو خمسة عشر مترًا، وعرضه يراوح بين متر ومتر ونصف[51]. وفي الوثائق المخزنية يرد اسم "الفلايك"، التي تتميز بقعرها الذي يتخذ شكلًا مسطحًا، أقل عمقًا، وهو ما كان يُسميه الأهالي بـ "أغاربو". وكانت هذه القوارب من الصنف الصغير ذات شراع ومجداف، وقد وُظّف هذا النوع من القوارب في الصيد وتجارة المساحلة والتهريب[52]، ولم يكن باستطاعته استيعاب حمولة كبيرة. وغالبًا ما كانت الفلايك تُزيّن، بحسب غابرييل ديلبريل، برسوم بدائية تمثل رؤوس وحوش البحر بعيون كبيرة ملونة باللون الأبيض والأزرق والأحمر على خلفية سوداء لأجسام نحيلة[53].

اتخذت القوارب الريفية شكلًا حادًا، وكان شعاعها ضيقًا (انظر الصورة 1)، كما كانت سريعة، وتسير بالشراع والتجديف[54]. وقد ارتكزت على الخفة والسرعة في الإقلاع عند أدنى هبّة رياح؛ فقد "كان رجال القبائل يتركون مخابئهم، وينطلقون في سفنهم الشراعية ذات المجاديف، ويأسرون بحارة السفن التجارية"[55]. فهي ليست كالسفن "القرصانية" المغربية، التي كانت تتوفر على مقاعد للجدّافين، تراوح بين اثنيْ عشر وعشرين مقعدًا، كما تتسع لحمل عدد من القطع المدفعية، تراوح بين قطعتين إلى اثنتي عشرة قطعةً للسفن الصغيرة، وبين ستّ عشرةَ إلى أربعين قطعةً بالنسبة إلى السفن الكبيرة[56].

وقد ميّز القنصل الإنكليزي "ج. د. هاي" J. D. Hay[57]، اعتمادًا على رواية شفوية لأحد الأهالي، بين القوارب الصغيرة والكبيرة التي كان يمتلكها الريفيون، وفيما يخص القوارب الكبيرة فقد كانت تحت قيادة الرايس، وتتسع لعشرين مجدافًا، وتستوعب خمسين رجلًا مسلحًا[58].

خلافًا لذلك، قدم "ج. ل. مييغ"، اعتمادًا على تقرير قنصل السويد في طنجة، توضيحات مفيدة حول "القرصنة" الريفية خلال القرن التاسع عشر، فهو يرى أن غابات الريف وفّرت للريفيين الأخشاب الملائمة لبناء قواربهم التي تمتاز بطولها وعمقها، إلا أنها كانت ضيقة، بحيث تتسع لثمانية إلى عشرة مجاديف فقط، ويمكن أن تستوعب ما بين خمسة عشر إلى أربعين رجلًا، وسارية كبيرة، وشراعًا لاتينيًا مثلث الزوايا الشائع استخدامه في البحر الأبيض المتوسط (وتوضح الصورة (2) شكل هذه الأشرعة)، وقد استخدم الريفيون هذه القوارب في التجارة والصيد والقرصنة[59].

---

48 موليراس، ج 1، ص 124.

49 Miege, tom. 2, p. 268.

50 موليراس، ج 1، ص 86.

51 Ahmed Chaara, *L'Agriculture et la pêche dans le littoral du Rif* (Tétouan: Asmir, 1996), p. 84.

52 Et-Tabyi (Eduardo Maldonado Vàzquez), *Retazos de historia marroquí*, Publicación de Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Árabe (Tetuán: Editora Marroquí, 1955), p. 152.

53 Gabriel Delbrel, *Geografía general del Rif (1909-1911)*, (Melilla: Eds. de la Consejería de Cultura, 2009), p. 128.

54 Pezzi, p. 20

55 ب. ج. روجرز، **تاريخ العلاقات الإنجليزية-المغربية حتى عام 1900م**، ترجمة يونان لبيب رزق (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981)، ص 193.

56 عثمان المنصوري، **العلاقات المغربية البرتغالية (1790-1844)**، ج 2 (المحمدية: مطبعة فضالة، 2005)، ص 202.

57 ولد سنة 1816، وعاش في المغرب ممثلًا لبريطانيا العظمى لمدة تقارب نصف قرن، عاصر ثلاثة سلاطين مغاربة، واعتبر عميدًا للسلك الدبلوماسي، توفي سنة 1892.

58 Drummond Hay, p. 284.

59 Miege, tom. 3, p. 268.

الصورة (1)

نموذج من القوارب الريفية التي استعملت خلال القرن التاسع عشر

المصدر:
"Riff Pirates," Africa Resource, 17/9/2009, accessed on 4/6/2018, at: https://goo.gl/u8eudM

الصورة (2)

نموذج من القوارب الشراعية الريفية

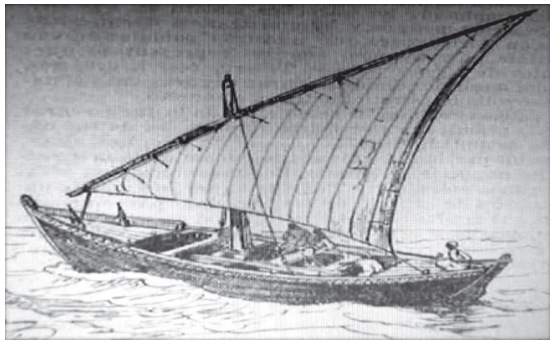

المصدر:
"Los Cárabos Norteafricanos," Historias De La Melilla Marinera, enero 20, 2013, accessed on 4/6/2018, at: https://bit.ly/2JudxyD

الصورة (3)

توضح انسلال القوارب الريفية داخل النتوءات الصخرية

المصدر: Ibid.

وإذا كان موليراس يزعم أن الريفيين (قبيلة بقيوة) كانوا يتوفّرون على زوارق كبيرة، متسائلًا عن مصدرها[60]، فقد سجّلنا وجود بعض "المراكب" الكبيرة لدى الريفيين، بفعل تمكّن بعضهم من السّيطرة على مراكب العدو وتحويلها لصالحهم؛ فمثلًا في سنة 1794 اشترى سيدي البشير الكبداني سفينة من بني بوغافر، سبق أن استولى عليها "البوغافريون" (من أخماس قبيلة قلعية)، قصد استعمالها ضد مراكب الصيد الإسباني المتجولة في سواحل الريف[61]. كما وجدت بعض المراكب الكبيرة عند وجهاء الريفيين؛ مثل مركب الحاج شدي أحد "وجهاء" أجدير الذي كانت له صداقة مع الإسبان[62]، وآخر مشابه له كان يملكه سيدي محمد أحضري من قبيلة آيت سعيد ممثل المخزن وخديمه، وصديق الدول الأجنبية (إسبانيا، وفرنسا، وإنجلترا). لكن يبقى من البديهي أن هذه الفئة من "الأوغرشيين"، وإن توفّرت على هذه المراكب، التي كانت خصائصها ومميزاتها أحسن مما توافر لدى باقي إخوانهم، فلم يكن باستطاعتها استعمالها في نشاط "القرصنة"[63].

إن ارتباط مصالح هذه الفئة من الوجهاء، من مالكي هذه المراكب الكبيرة، بمصالح المخزن من جهة، والأجانب من جهة ثانية، لم يكن ليسمح لها بالدخول في تجاذبات سواء مع هذا الطرف أو ذاك. فضلًا عن كون هذه الفئة ارتبطت بعلاقات تجارية مع تطوان ووهران؛ ما يعني أن أي تهديد منها للسفن الأجنبية يجعلها عرضة لتهديد مضاد. كما أن امتلاك السفن الكبرى كان يحتاج إلى مراسٍ مجهزة للانطلاق منها والعودة إليها، وهو الدور الذي قام به ميناء تطوان بالنسبة إلى "الجهاد البحري الرسمي"، إلى حدود سنة 1817. كما أن استخدام السفن الكبرى كان سيسهل عملية رصدها وملاحقتها من جانب الأوروبيين والمخزن معًا، هذا في الوقت الذي كان فيه النشاط البحري للريفيين يمثّل نوعًا من "حرب العصابات" قائمًا على الكر والفر.

مارس الريفيون الذين ولّوا وجوههم نحو البحر، نشاطهم البحري باستعمال القوارب، من خلال تحويلها إلى مصدر قوة لصالحهم. فصغر حجمها كان ملائمًا تمامًا للطبيعة المورفولوجية لساحل الريف؛ حيث سمح لها بالاختباء جيّدًا في الخلجان والنتوءات الصخرية (انظر الصورة 3)، أو بالانسلال إلى مصابّ الأنهار، بعيدًا عن أنظار السفن الأوروبية، ونظيرتها المخزنية المكلفة بالحراسة لتأمين تنقّل السفن الأوروبية. إن تكيّف الإنسان الريفي مع المعطيات الطبيعية جعل نشاط "القرصنة" الريفية لا يرتكز على السفن الكبيرة، القادرة على المهاجمة في عرض البحر.

وعلى الرغم من أن الريف كان يتوفّر على ثروة غابية مهمة يُحتاج إليها في الصناعة الملاحية، إضافة إلى احتضان الساحل المتوسطي للمغرب لعدة ورش لبناء السفن، لا سيما في باديس[64]، فإن السيطرة الإيبيرية على مراكزه الحيوية حالت دون تطور تقنيات هذه الصناعة. هذا في الوقت الذي عرفت فيه صناعة السفن الأوروبية تطورًا مطّردًا، وبدأ الأوروبيون في استعمال البواخر[65].

وعلى الرغم من تباين الإمكانيات بين الطرفين، فقد تمكن الريفيون من الإيقاع بالسفن الأوروبية الأكثر تجهيزًا وتطورًا، فكيف تم لهم ذلك؟

2. آليات تنفيذ عمليات "القرصنة"

أمام غياب الموانئ التي يمكن أن تمثّل قاعدة خلفية "للسفن القرصانية"/ لسفن القرصنة، اضطر "قراصنة الريف" إلى البحث عن طرق ووسائل لتحويل موازين القوى لصالحهم، وفقًا لمنطق الواقع المفروض عليهم، باعتماد الحيل للتقليل من قوة الخصم؛ فقد ابتكر الريفيون أساليب جديدة تمكّنهم من قطع الطريق على السفن الأوروبية المارة بسواحلهم.

---

60 موليراس، ج 1، ص 97.

61 حسن الفكيكي، **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية (1697-1859)**، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997)، ص 363.

62 أركس إريكس، في: اللوه، ص 162.

63 Becker, p. 233.

64 إبراهيم بوطالب، "أسس الاحتلال الإسباني لسبتة والجزر المغربية في البحر الأبيض المتوسط"، **مجلة المشروع**، العدد 7-8 (1986)، ص 92.

65 المنصوري، ج 1، ص 65.

وفي ظل ضعف المستوى التقني، وصغر قوارب الريفيين غير القادرة على مجاراة الأمواج العاتية، ومواجهة السفن الأوروبية في عرض البحر، والدخول معها في معارك بحرية، كان أهالي الريف يترقبون قذف الرياح القوية بالسفن الأوروبية إلى الساحل[66]، أو هدوئها فجأة[67]، حينها لن يكون بمقدور تلك السفن السير والإفلات من الهجوم. ما يجعلها في متناول أيديهم، رغم محدودية إمكانياتهم التقنية، من دون الحاجة إلى مطاردة السفن المستهدفة[68]. أو عند غرق مركب ما قرب الشاطئ[69]، فتصبح بذلك غنيمة سهلة المنال للقوارب الريفية، التي تترصدها انطلاقًا من الخلجان الضيقة[70].

وعند رصد أحد المراكب التي تقاذفتها الأمواج إلى الساحل، يطلق الأهالي صرخات إنذار من الجبال، وتندفع القوارب من الخلجان نحو هدفها المرصود[71]. وقد حال الحجم الصغير للقوارب الريفية بينها وبين الإبحار بعيدًا، على الأقل خارج فصلي الربيع والصيف. لكن رغم ذلك تجرأ الريفيون مرات عدة على ملاحقة السفن الأوروبية حتى عمق عشرة أو اثني عشر ميلًا من الشاطئ[72]، لاعتراض المراكب القلاعية والمراكب الصغيرة الحاملة للسلع، فعندما يكون البحر هادئًا والرياح ساكنة، لا يسع تلك المراكب سوى الاستسلام وتمكين الأهالي مما يطلبونه من السلع[73]. والملاحظ أن عمليات "القرصنة الريفية" لم تعتمد على تسليح فعال من معدات مدفعية وغيرها، بل اقتصرت على الأسلحة الخفيفة والذخيرة، لغرض التهديد والإرغام على الاستسلام، وليس لخوض معارك بحرية[74]. صحيح أن السفن الأوروبية أصبحت مسلحة، لكنها لم تكن تستطيع ضمان الحماية لنفسها في هذه الحالة، لسببين:

أن ربابنة السفن، في ظل وضعية هذه كانوا يبحثون عن النجاة بأنفسهم قبل التفكير في إنقاذ حمولة سفنهم.

أن الريفيين أصبحوا مسلحين، خلال القرن التاسع عشر، ببنادق جيدة التصويب، حصلوا عليها بفضل التهريب.

يتم تنفيذ علميات "القرصنة" هذه، في إطار فريق متكامل الوظائف؛ إذ بعد رصد "الغنيمة" يتحرك سرب من القوارب، التي كانت تستعمل إما الأشرعة أو التجديف[75]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن تنفيذ مختلف العمليات البحرية التي تم رصدها، لم تكن تنفذ بقارب واحد. ففي 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1854 مثلًا، هاجمت ثمانية قوارب الزورق الإسباني سان خوسي San José القادم من مالقة، عند وصوله إلى رأس الفرشات الثلاث[76]. وتعرض، في 27 تشرين الأول/ أكتوبر 1896، المركب الشراعي الفرنسي "بروسبير كورن" Prosper Corin، المتجه إلى "أرزيو" (الجزائر) قادمًا من قادس، لهجوم نفّذه العديد من القوارب[77]، حدد موراليس عددها في عشرة قوارب انطلقت من ساحل قبيلة بقيوة[78].

---

66 Et-tabyi, p. 156.

67 شكل مفاجأة السفن بهدوء الرياح أبرز خطر هدد السفن المبحرة في البحر الأبيض المتوسط، انظر:
Philip Gosse, *Los corsarios berberiscos: Los piratas del norte, (Historia de la piratería)*, 3rd ed. (Buenos Aires: Espasa-Calpe Argentina S. A, 1954), p. 18.

68 Salvatore Bono, *Les corsaires en Méditerranée*, Ahmed Somai (trad.), (Rabat: Ed. La Porte, 1998), p. 137.

69 Gabriel De Morales, *Datos para la historia de Melilla (1497-1907)*, tom. 1 (Granada and Melilla: Imp. Copistería la Gioconda/ Centro asociado UNED, 1992), p. 237.

70 Adolfo Llanos Alcaraz, *La campaña de Melilla de 1893-1894*, Estudio preliminar de Francisco Saro Garandillas (Málaga: Algazara, 1994), p. 348.

71 José Gomez de Arteche & Francisco Coello, *Descripción y Mapas de Marruecos* (Madrid: Imp. Mellado, 1859), p. 65.

72 Pezzi, pp. 99-100.

73 De Arteche & Coello, p. 65.

74 محمد الرايس، **شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم بن عبد الكريم الخطابي**، إعداد وتقديم عبد الحميد الرايس (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2011)، ص 163.

75 موليراس، ج 1، ص 97.

76 De Morales , tom. 1, p. 201.

77 Ministerio de Estado a Ministro lenipotenciaria de España en Tánger. Despacho no. 17, Madrid 9 de Febrero de 1897, *A.G.A,* África, Sección Histórica (Marruecos), Caja 194.

78 De Morales, tom. 1, p. 334.

وقد أحصى قنصل السويد في طنجة على شاطئ مسطاسة وحده أكثر من سبعين قاربًا، ويعتقد أن الساحل الريفي كله كان يضم ما بين مئتين وخمسين إلى ثلاثمئة وحدة، وقد كرّست قبائل "قلعية" وبنو ورياغل معظم قواربها للقرصنة. فعندما ترصد سفينة ما، يضعون، وبسرعة، ما بين ثمانية إلى عشرة من قواربهم في المياه، ثم يركب نحو خمسة عشر رجلًا مسلحين بالبنادق في كل قارب لاقتحام السفينة المستهدفة[79]، وقد يصل عددها إلى أربعة وأربعين قاربًا[80]، بحسب ما تقتضي طبيعة العملية.

عمومًا، ورغم تفاوت الأرقام، فإن عمليات الهجوم قد نفّذها عدد مهم من القوارب الريفية. وقد يفسر هذا التحرك الجماعي للقوارب الريفية بصغر حجمها، ما فرض عليها القيام بتنفيذ عملياتها في إطار مجموعة متكاملة المهمات. فعقب السيطرة النهائية على السفينة والصعود على ظهرها، كان الأهالي يحتاجون إلى نقل السلع المستحوذ عليها إلى الشاطئ. فاضطروا في حالات كثيرة إلى القيام بأكثر من رحلة، ما بين مكان جنوح السفينة والشاطئ، وحيث انتظار باقي الأهالي. ولذلك، كلما كثرت القوارب كانت عملية النقل أسرع، والعكس صحيح. وكان للعنصر البشري دور بارز في حسم العمليات؛ لكون كثرة العدد تجعل العملية تنفذ بسرعة. ولأهميتها، نجد القوارب الريفية (بقيوة) الخمسة التي هاجمت السفينة الإنكليزية "برخين دي لوس أنجلس" (أيلول/ سبتمبر 1895)، يلزمون بحارتها بمساعدتهم في نقل السلع إلى قواربهم[81].

ولأن أي تأخر في إنهاء العملية والانسحاب قد يمثّل خطرًا على حياة الأهالي، خاصة عندما تتلقى السفن المأسورة مساعدات من السفن الأوروبية الأخرى؛ كما حدث في تشرين الأول/ أكتوبر 1896، للمركب الشراعي "بروسبير كورن" الفرنسي، الذي أغاثته السفينة الإسبانية "إشبيلية" Sevilla؛ التي تمكّن ربانها من إلقاء القبض على بعض القوارب الريفية وأسر من كان على متنها[82]. وأحيانًا يمكن السفينة أن تتحرك نتيجة هبوب الرياح؛ كما حدث سنة 1895، للسفينة الهولندية "آنا" التي توقفت في خليج الحسيمة، قبل أن تتمكن من مواصلة سيرها نحو جبل طارق بعد هبوب الرياح[83]، فأصبح الريفيون الذين صعدوا على متنها في خطر. كما أن الهجوم الجماعي من جميع الجوانب كان يعوّض ضعف تسليح القوارب الريفية، ومن ثمّ يفرض نوعًا من الحصار على السفينة المستهدفة، ويجعلها غير قادرة على المقاومة.

خاتمة

صفوة القول، إن أعمال القرصنة الريفية التي شهدها المجال الغربي للمتوسط استطاعت تهديد خطوط الملاحة المتوسطية، وساهمت العمليات البحرية الريفية الموجهة ضد السفن الأوروبية، في التأثير القوي في العلاقات المغربية - الأوروبية. بينما جعلت أوروبا من هذا الملف ورقة للضغط على المخزن، للحصول منه على مجموعة من الامتيازات. وبذلك، كانت لهذه القرصنة نتائج وخيمة على مالية المخزن وهيبته.

79 Miege, tom. 2, p. 268.

80 Manuel Juan Diana, *Un prisionero en el Rif: Memorias del ayudante Alvarez*, 2nd ed. (Madrid: Imp. Manuel Gali, 1859), p. 115.

81 وهذا ما يوضحه نص الرسالة المخزنية التالية، التي ورد فيها: "ومن جملة ما نهب مركب بابور للنجليز يسمى 'برخين دي لوس أنجليس'، حسبما أخبر به 'نإنهم'، وذكر أن أهل مدشر إزمورن من قبيلة بقيوة هجموا عليه بقواربهم، في الخامس عشر من أيلول/ ستنبر، وأخذوا جميع ما فيه من السلعة والآلة وحوائج الرايس والبحرية، وألزموهم إعانتهم على نقل ذلك لقواربهم". رسالة موجهة من مولى عبد العزيز إلى محمد بن العربي الطريس، مؤرخة في 18 ربيع الآخر 1313هـ الموافق 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1895م، **وثائق الخزانة العامة بتطوان**، مج 14/ 65.

82 Ministerio de Estado a Ministro Plenipotenciaria de España en Tánger, despacho no. 17.

83 عبد الواحد الناصر، **التدخل العسكري الأجنبي في المغرب (قراءة في جيوستراتيجية المغرب خلال القرن 19 وأوائل القرن 20)**، (الرباط: مطبعة إلين، 1999)، ص 68-69.

المراجع

العربية

- ابن زيدان، عبد الرحمان. **العلائق السياسية للدولة العلوية**. تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي. الرباط: المطبعة الملكية، 1999.
- أقضاض، محمد. **الاحتراق والتوهج: الريف بين 1860 و1920**. وجدة: دار النشر الجسور، 2001.
- أميلي، حسن. **المغاربة والمجال البحري في القرنين 17-18**. الرباط/ المحمدية: دار أبي رقراق للطباعة والنشر/ مختبر الأركيولوجيا والتراث الثقافي الساحلي، 2011.
- أونيا، محمد. "مفهوم الريف المغربي"، **مجلة حوليات الريف**. العدد 1 (1998).
- بوطالب، إبراهيم. "أسس الاحتلال الإسباني لسبتة والجزر المغربية في البحر الأبيض المتوسط". **مجلة المشروع**. العدد 7-8 (1986).
- التمسماني، عبد العزيز خلوق. **دراسات في تاريخ شمال المغرب المعاصر**. طنجة: منشورات سليكي إخوان، 1996.
- _____. **معلمة المغرب**، ط 2. الرباط/ الدار البيضاء: دار الأمان/ الجمعية المغربية للنشر والتأليف، 2014.
- داود، محمد. **تاريخ تطوان**. الرباط: المطبعة الملكية، 1978.
- الرايس، محمد. **شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم بن عبد الكريم الخطابي**. إعداد وتقديم عبد الحميد الرايس. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2011.
- روجرز، ب. ج. **تاريخ العلاقات الإنجليزية-المغربية حتى عام 1900م**. ترجمة يونان لبيب رزق. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1981.
- الزياني، أبو القاسم. **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**. القسم الأول من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله. تحقيق رشيد الزاوية. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1992.
- عياش، جرمان. **دراسات في تاريخ المغرب**. ترجمة محمد أمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسماني. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1986.
- _____. **أصول حرب الريف**. ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسماني. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الحديدة، 1992.
- الفكيكي، حسن. **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية (1697-1859)**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997.
- القدوري، عبد المجيد. **المغرب وأوروبا: ما بين القرنين الخامس عشر والثامن** عشر **(مسألة التجاوز)**. ط 2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012.
- اللوه، آمنة. "حول إستراتيجية النبأ عند المغاربة". **مجلة البحث العلمي**. السنة 28. العدد 42 (1994/ 1995).
- مجموعة مؤلفين. **تطوان خلال القرن الثامن عشر (1727-1822)**. تطوان: مطبعة الهداية، 1994.
- مجموعة مؤلفين. **الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي**. سلا: منشورات جمعية أبي رقراق، 1999.
- المنصور، محمد. **المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين (1792-1822)**. ترجمة محمد حبيدة. بيروت/ الدار البيضاء: منشورات المركز الثقافي العربي، 2006.
- المنصوري، عثمان. **العلاقات المغربية البرتغالية (1790-1844)**. المحمدية: مطبعة فضالة، 2005.
- موليراس، أوجيست. **المغرب المجهول: اكتشاف الريف**. ترجمة عز الدين الخطابي. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2007.
- مييج، جون لوي. "أنشطة تطوان البحرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر". ترجمة مصطفى غطيس. **مجلة كلية الآداب بتطوان**. العدد 7 (1994).

• الناصر، عبد الواحد. **التدخل العسكري الأجنبي في المغرب (قراءة في جيوستراتيجية المغرب خلال القرن 19 وأوائل القرن 20)**. الرباط: مطبعة إلين، 1999.

• الناصري، أحمد بن خالد. **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. ط 2. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001.

• **وثائق الخزانة العامة بتطوان**، المغرب.

الأجنبية

• Alcaraz, Adolfo Llanos. *La campaña de Melilla de 1893-1894*. Estudio preliminar de Francisco Saro Garandillas. Málaga: Algazara, 1994.

• Becker Jerónimo. *Historia de Marruecos (Apuntes para la Historia de la penetración europea, y principalmente de la española, en el Norte de África*. Madrid: Eds. Establecimiento Tipográfico de Jaime Ratez, 1915.

• Benjelloun, Abdelmajid. *Fragments d'histoire du Rif oriental et notamment des Beni Said dans la deuxième moitié du XIXme siècle (d'après les documents de Hassan Ouchen)*. Rabat: Impr. Al Maarif al jadida, 1995.

• Bono, Salvatore. *Les corsaires en Méditerranée*, Ahmed Somai (trad.). Rabat: éd. La Porte, 1998.

• Caillé, Jacques. *La Petite histoire du Maroc (Troisième série: de 1850 à 1912)*. Rabat: Éd. Société de Librairie et d'Edition Atlantique, 1954.

• Chaara, Ahmed. *L'Agriculture et la pêche dans le littoral du Rif*. Tétouan: Asmir, 1996.

• De Arteche, José Gomez & Francisco Coello. *Descripción y Mapas de Marruecos*. Madrid: Imp. Mellado, 1859.

• De Morales, Gabriel. *Datos para la historia de Melilla (1497-1907)*. Granada and Melilla: Imp. Copistería la Gioconda/ Centro asociado UNED, 1992.

• Delbrel, Gabriel. *Geografía general del Rif (1909-1911)*. Melilla: Eds. de la Consejería de Cultura, 2009.

• Deville, Amédée Sainte-Claire. *Du crime de piraterie étude sur de la loi du 10 Avril 1825*. Versailles: Imprimerie de E. Aubert, 1876.

• Diana, Manuel Juan. *Un prisionero en el Rif: Memorias del ayudante Alvarez*. 2nd ed. Madrid: Imp. Manuel Gali, 1859.

• Díaz, Ramón Lourido diaz Lourido. *Marruecos en la segunda mitad del siglo XVIIIe*. Edición de la Instituto Hispano-Árabe de Cultura. Madrid: Imp. IMNASA-Menorca, 1978.

• Drummond Hay, Jean. *Le Maroc et ses tribus nomades (Excursion dans l'intérieur, chasses, détails de mœurs, superstitions, coutumes, etc.)*. Louise SW.-Belloc (trad.). Paris: Ed. Arthus Bertrand, 1844.

• Et-tabyi, (Eduardo Maldonado Vàzquez). *Retazos de historia marroquí*. Publicación de Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Árabe. Tetuán: Editora Marroquí, 1955.

• Fillias, Achille Étienne. *L'Espagne et le Maroc en 1860*. Paris: Éd. Poulet-Malassis et de Broise, 1860.

• Gosse, Philip. *Los corsarios berberiscos: Los piratas del norte (Historia de la piratería)*. 3rd ed. Buenos Aires: Espasa-Calpe Argentina S. A, 1954.

• Miege, Jean-Louis. *Le Maroc et L'Europe (1830-1894)*. Paris: PUF, 1961.

• Pezzi, Rafael. *Los presidios menores de África y la influencia Española en el Rif*. Madrid: Impresor de la Real Academia de la Historia, 1893.

• Rincón, Manuel Corchado. *Relaciones entre España y Marruecos en el siglo XXe*. Madrid: Edición de la Asociación Española de Africanistas, 2000.

• Testa, Carlos. *Le droit public international maritime principes généraux, règles pratiques*. Ad. Boutiron (trad.). Paris: Ed. G. Pedone-Lauriel, 1886.